

ظاهرة "الجماهير": مقاربات مقاصدية ومستقبلية

Phenomenon of the Masses: A Futuristic and Maqasidic Approaches

Fenomena "Khalayak": Pendekatan Maqasid dan Masa Hadapan

مسفر بن علي القحطاني*

ملخص البحث

يحاول الباحث معرفة الوصف الفقهي للجماهير بما فيهم العوام والغوغائيين والرعاع مما جاء ذكرهم في كتب الفقه، وإظهار البُعد المقاصدي في نظرة الشريعة لجمهور المجتمع مستلهما في ذلك آيات من القرآن الكريم وبعض النصوص النبوية. ويسعى البحث نحو تفسير ظاهرة التنامي الجماهيري وأحوالها ومؤثراتها، مع عدم إغفال المصطلح التقني الجديد المعروف بالجماهير الافتراضية، فضلا عن تناول أهم المؤثرات والأبعاد التغييرية التي طرأت على الهوية والفكر بعد انتشار هذا المصطلح وتحوله لواقع حقيقي يحكم علاقات المجتمع بعضه ببعض، مع التركيز على تأثير الصورة الثابتة والمتحركة في السلوك الجمعي للجماهير.

الكلمات المفتاحية: ظاهرة الجماهير، الجماهير الافتراضية، الصورة الثابتة، الصورة المتحركة.

Abstract

The researcher tries to uncover the description of the masses from the perspective of the Fiqh such as the ordinary people, the mobs and the proletariat which were mentioned in the books of Fiqh. The paper also aims at establishing the Maqasidic dimension in the perspectives of the Shariah on the masses of the society as observed in Quranic verses and some prophetic

* أستاذ أصول الفقه بقسم الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، الظهران، المملكة

texts. It also strives to explain the phenomenon of the rise of the masses, their conditions and causes without ignoring the modern technical term known as the hypothetical masses. This is in addition to discussing the most important causes and the transforming dimensions that came upon the identity and thought after the proliferation of this term and its transformation into a reality that governs the relations inter societies. It is also meant to focus on the effect of the stable and dynamic concept in the collective behavior of the masses.

Key terms: Phenomenon of the masses, Hypothetical masses, Stable image, dynamic image.

Abstrak

Kajian ini cuba mengenalpasti gambaran fiqh tentang “khalayak ramai” yang terdiri daripada rakyat biasa, penyayang mahupun samseng yang disebutkan dalam kitab-kitab fiqh. Ianya juga menunjukkan sudut maqasid terhadap orang ramai berpandukan ayat-ayat al-Qur’an dan Hadith. Kajian ini bertujuan untuk menerang fenomena perkembangan massa dan keadaan dan kesannya tanpa mengabaikan istilah teknikal baru yang dikenali sebagai “khalayak maya”. Disamping itu, kajian membincangkan pengaruh dan dimensi perubahan yang paling penting yang berlaku kepada identiti, pemikiran selepas penyebaran istilah ini dan menjadikannya sebagai realiti sebenar yang mengawal perhubungan masyarakat. Kajian juga berfokus kepada kesan gambaran kekal dan berubah-ubah dalam sikap dan tingkah laku orang ramai.

Kata kunci: Fenomena Khalayak, Khalayak Maya, Imej kekal, Imej Dinamik

مقدمة

كثيرة هي الظواهر التي تظهر وتتمدد في مجتمعنا الإنساني الكبير، وكثيرة تلك الدراسات والأبحاث التي تتناولها بالكشف والتحليل، ولكن في مجتمعاتنا العربية تتفاقم بعض المشكلات وتنتهي دون أن يمر عليها مشروط التحليل وكشاف الباحث ومسبار النقد، رغم كثرة الظواهر وتنوعها في كافة المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية وحتى الدينية منها، وهذا التجاهل ليس لقلة الجامعات والمراكز البحثية؛ بل لعدم التفرغ الذهني لكثير من الباحثين لتناول الجديد وقياسه بشكل علمي وحديث، والإلف على القدم يعزز التماهي مع التقليد، وقد يكون ليبروقراطية العمل البحثي في الجامعات سبب يضاف لما سبق، ولا نغفل عن ضعف الدعم المالي لدراسة الظواهر البطيئة والصامتة،

وانشغال المجتمع في الغالب بالظواهر الشكلية الطافية على السطح وانغماسهم فيها بالحديث العام أو التناول الصحفي البسيط.

وفي هذا البحث أحاول فتح الباب لدراسة ظاهرة هامة في وقتنا المعاصر على المستوى المعرفي وعلى مستوى الأثر الواقعي في صناعة الأحداث، وهي ظاهرة "الجماهير"؛ بوصفها أعدادا وجموعا غفيرة، وأيقونات وحشودا رقمية،¹ ورغم أهمية الموضوع فإنني لم أجد في الكتب والأبحاث العربية ما يروي غليل الباحثين، ولأهمية الظاهرة حاولت أن أضع بعض الأهداف من تناول دراستها، أوجزها فيما يلي:

- 1- معرفة حقيقة الجماهير وأثرهم الواقعي والموقف الديني منهم.
- 2- التعرف إلى ملامح الظاهرة الجماهيرية على المجتمع ونسق هويتها.
- 3- استشراف مستقبل هذه الجماهير سواء أكانت في عالم الشهود أم في العالم الافتراضي.

وحاولت أن أطبق المنهج الوصفي والتحليلي والمنهج النقدي أيضا أثناء تتبع بعض الآراء التي تناولت هذه الظاهرة وفق المعطيات العلمية والدراسات السابقة في الموضوع، وغالبها كتب أجنبية تمت الإشارة إليها في البحث.

وكل ما سيأتي من هذه الدراسة إنما الغرض منه محاولة لفتح الباب للباحثين لمزيد التعمق في فهم ظاهرة "الجماهير"، ومحاولة رسم المعالجات المناسبة لانحرافاتهما، وأتمنى أن تكون هذه المقاربة المقاصدية التي لم أسر فيها على طريقة علمائنا الأصوليين الأجلاء بسبب انتهاج طريقة العرض في رصد الظاهرة وإبراز ملامح التناول الأصولي دون تفصيل تقليدي لا يضيف جديدا، فضلا عن أن الدراسة لم تتطرق إلى مدونات الأصوليين

¹ تضم المكتبة العربية كتاب "لقاء الجماهير" للدكتور أكرم رضا ويتناول طريقة الحديث أمام الجماهير، والكتاب نشرت طبعته الأولى دار التوزيع والنشر الإسلامية في 2001م، وهناك كتاب آخر بعنوان "عصر الجماهير الغفيرة" لجلال أمين ويتناول مصر خلال السنوات الخمسين الماضية والتغيرات التي مرت بها، والكتاب من إصدار دار الشروق المصرية 2011م، وكل ما سبق لا يتصل بشكل مباشر بموضوع البحث.

الرئيسة، كما سيظهر في البحث، ولعل هذا الباب يفتح المجال لدراسات علمية أخرى لتناول بقية الظواهر الخطائية في مجتمعنا والعناية بها معرفياً، فلا أمل في إصلاح المجتمعات ما لم تكن هناك رؤى واضحة ومنهجية علمية تأخذ بيدنا نحو حسن التعامل مع الظواهر ومدافعتها بفقته وحكمته.

أولاً: مقارنة مقاصدية للظاهرة الجماهيرية

يُستعمل مصطلح "الجماهير" في التراث الفقهي للدلالة على معانٍ متعددة، فهناك من يطلقه للدلالة على اتفاق أكثر العلماء بأنه قول الجماهير، وهو يختلف عن الجمهور في الاصطلاح الفقهي الذي غلب استعماله على وصف ثلاثة من الأئمة الأربعة إذا اتفقوا على قول، فيقال هذا قول الجمهور، بمعنى اتفاق أبي حنيفة ومالك والشافعي ومخالفة أحمد على سبيل المثال، بينما علماء اللغة لا يفرقون ولا يخصصون، ويرون أن الجمهور مفرد جماهير، أي جماعات الناس؛ لأن الأصل اللغوي يعود في الإطلاق على الرمل الكثير المتراكم الواسع كما ذكر الأصمعي.¹ لكن هناك إطلاقاً مختلفاً، وهو المراد تخصيصه في هذا المقام، يتعلق بالتوصيف الكمي للإنسان وكثرته، وفي هذا الاستعمال تكاثرت المرادفات اللفظية لمعنى واحد يتمحور حول مصطلح "الجماهير" كالغوغاء والرعا والهمج والعمامة؛ بل قيل فيهم السفلة والأراذل، وهذا الإطلاق السلبي جاء نتيجة للدور الذي يضطلع فيه العوام عند الأزمات وما يرتكبونه من بشاعات، تؤكد بعض أحداث التاريخ الماضية، فنجد أن وصف الغوغاء قد لحق بالخوارج الذين خرجوا على علي عليه السلام، وعلى الذين تأمروا على مقتل الحسين عليه السلام، وكذا على المواجهات التي تتصدم فيها الجماهير اتباع المذاهب والطوائف مع بعضهم، كما حدث من المواجهات الطائفية

¹ انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم الأفيقي، لسان العرب، (بيروت: صادر، ط3، 1414هـ)، ج4 ص149؛ ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الجزري، النهاية في غريب الحديث، (بيروت: دار الكتب العلمية 1979م)، ج1 ص

بين حنابلة بغداد والشيعة خصوصاً في عام 482هـ.¹ يظهر مما سبق أن هناك توافقاً ضمناً في التوصيف السلبي للجماهير والغوغاء، كونهم في الأزمان يميلون للجنوح وتستميلهم العواطف ويندفعون نحو الصدام بلا تروٍّ ولا نظر، وقد وصفهم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في قصة معروفة حكاها ابن عباس رضي الله عنهما؛ الشاهد منها ما قاله عبد الرحمن بن عوف لعمر رضي الله عنه عنهم يثبطه عن القيام خطيباً في الناس يوم الحج بعدما سمع كلمة بدأت تنتشر بين الناس، وهي أن خلافة أبي بكر رضي الله عنه كانت فلتة، وأن الناس بعد موته سوف تباع فلاناً وفلاناً، فقال: "يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعايا الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قريك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يُطَيِّرُهَا عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشرف الناس، فتقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقاتلتك، ويضعونها على مواضعها".² ومثله ورد عن قائد مجرب هو عبد الله بن عامر ابن كريز - رحمه الله - يصف خطر الغوغاء وكيفية التعامل معهم، حيث قال: "فإن غوغاء الناس إذا تفرغوا وبطلوا اشتغلوا بما لا يغيي وتكلموا بما لا يرضي، وإذا تفرقوا نفعوا أنفسهم وغيرهم".³ ويقول العرب في أمثالهم: "أغوى من غوغاء"، ويشبهون الغوغائيين بالجراد إذا ماج بعضه في بعض قبل أن يطير.⁴ هذه النظرة التراثية الحذرة جدا من الجماهير لها ما يبررها من الواقع ومن الأحداث التي مرت في التاريخ، ولكنها نظرة

¹ انظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق وتعليق د. بشار عواد معروف، (تونس: دار الغرب الإسلامي، 1424هـ)، ج7، ص349.

² البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، (بيروت: دار ابن كثير، 1993م)؛ كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، ج6، ص2504، رقمه: 6442.

³ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، (بيروت: دار الفكر، 1986م)، ج7، ص167.

⁴ انظر: الرمخشري، محمود بن عمر، المستقصى في أمثال العرب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1987م)، ج1، ص264.

مختزلة و سطحية لم تُفكك أسباب هذا الجنوح في التعاطي السليبي معهم، ولم تكتشف عوامل التأثير على أولئك الجماهير حتى أصبحوا موطن الفساد وسبب الفوضى والخراب، وفي هذا الاتجاه سار غالبية فقهاء السياسة الشرعية في محاولة متوارثة لتهميش دور الجماهير وشيطنة وجودهم، حتى أضحي تهميشاً متعمداً للسواد الأعظم من الأمة، وكأنهم مجرد حشد من الأعداد ليس لهم سوى نصوص السمع والطاعة.¹ ويُبنى على ذلك احتمال آخر له شواهد المتعددة بحيث نستطيع وصف أديباتنا التراثية على تنوعاتها بأنها نخبوية لم تراخ دور الجماهير، ولم تؤسس على ذلك الوجود حقوقاً أو نظماً في المشاركة، أو تنطلق من مجموعها في إثبات المرجعية الحقيقية للأمة بحيث تصدر عنها أهم القرارات المصيرية، ومن أشهر ما يذكر في التمثيل على الخطّ من قدر الجماهير استشهادهم بأثر كُمَيْل بن زياد عندما قال له علي عليه السلام: "إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك، الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاغ أباغ كل ناعق، مع كل ريج يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق".² ومع أن هذا الأثر قد علل سبب هذا الانتقاص من الجماهير وحاء في سياق الحث على العلم، إلا أنه وُظف بعد ذلك في تهوين قدر الجماهير غير المتعلمة وجعلهم في دائرة من يخاف خطرهم وضررهم.

لكن هناك وصفا للجماهير يحتاج إلى وقفة علمية، وهو المتعلق بوصفهم بـ"العامّة"، فهذا الإطلاق يستعمل كثيرا في كتب الفقه؛ بل استعمل في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، ونصّه: عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذكر الفتنة (أو

¹ انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، ط2، 1988م)، ج1، ص199؛ ابن الأزرقي، محمد بن علي الأصبحي، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: علي سامي النشار، (بغداد: وزارة الإعلام العراقية، ب.ت. ج1، ص17).

² ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1411هـ)، ج2، ص220.

ذكرت عنده) فقال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرَّجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا»، (وشبك بين أصابعه)، قال: فقامت إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟، قال: «الزَّمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةٍ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ».¹

فهذا الحديث الذي ذكر وصف العامة، له سياق الذي يجب أن يفهم الحديث من خلاله، وإذا رجعنا لشراح الحديث فسنجد لهم تفسيراً يوضح هذا المعنى بعيداً عن الانتقاص المباشر لهم، يقول العظيم آبادي في شرحه لهذا المعنى: "أي الزم أمر نفسك واحفظ دينك واترك الناس ولا تتبعهم وهذا رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كثرت الأضرار وضعف الأخيار".²

فترك العامة جاء وفق حالة معينة، بأن المجتمع كثر شره وضعف الأخيار فيه، فأصبح السواد الأعظم من المجتمع يميل للفتنة، فكان لزوم العزلة أفضل من الخوض فيها، وهناك حديث آخر جاء فيه مدح السواد الأعظم من الأمة وهم جماهيرها، كما في قوله ﷺ: «تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصراني على اثنتين وسبعين فرقة، وأمتي تزيد عليهم فرقة كلهم في النار إلا السواد الأعظم».³

وجاء في معنى السواد الأعظم؛ أنهم الجماعة، وأهم جمهور الأمة، وأهم ما عليه النبي ﷺ، وهذه المعاني مرتبطة بكون الجماهير الكثيرة قائمة على سنن الهداية

¹ السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين، تعليق: كمال الحوت (بيروت: دار الفكر، 1995م)، ج2، ص157، رقمه: 4343. وقال عنه الألباني: حديث حسن صحيح.

² العظيم آبادي، محمد أشرف بن أمير، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1415هـ)، ج9، ص377.

³ الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (بيروت: دار الفكر، 1412هـ)، ج7، ص512، رقمه: 12096، وقال في تخرجه: رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه، وفيه أبو غالب وثقه ابن معين وغيره وبقيه رجال الأوسط ثقات وكذلك أحد إسنادي الكبير.

والاستقامة، وإلا ما فائدة الكثرة وهم على ضلال وانحراف؟!
فمصطلح "العامة" المتداول في المؤلفات الفقهية غالباً ما يكون مرتبطاً بفتنة غير المتعلمين أو غير المتخصصين في العلوم الشرعية؛ لأن العلماء عندما يكتبون في توصيف المجتمع وتقسيمه فهم ينطلقون من رؤيتهم العلمية التي تمايزهم عن غيرهم، مثل ما يصف الأمير الفئات الأخرى بالشعب، ومثل ما يصف المقاتل الفئات الأخرى بالمسلمين أو نحوه، والتاجر يصف الفئات الأخرى بالفقراء أو المتوسطين في دخلهم وهكذا، فالمصطلح توارد فقهياً من باب التوصيف بين العالم ومن حظه في العلم أقل وهم العامة. هذا هو المقصد الشرعي الذي اعتقده في وصف الشريعة للعامة، وأنه ليس وصفا مذموماً في أصله، كما أن الشريعة لم تنزع لتقسيم المجتمع إلى فئة أهل العقل والحكمة وفئة أقرب للجنوح والخروج عن الطاعة والشغب على القيم العامة؛ بل ربما أنطت بهم أصلاً للإفناء وجعلتهم مرجعاً للعرف المقبول، كما في قاعدة الاستحسان العربي في كتب الأصوليين.

ويقرر ذلك الطاهر بن عاشور - رحمه الله - فيقول: "وأما المعاني العرفية فهي المجرّبات التي ألفتها نفوس الجماهير، واستحسنتها استحساناً ناشئاً عن تجربة ملاءمتها لصلاح الجمهور، كإدراك كون الإحسان معنى ينبغي تعامل الأمة به، وإدراك كون عقوبة الجاني رادعةً إياه عن العود إلى مثل جنائته، ورادعةً غيره عن الإجرام، وكون ضدّ ذنبك يؤثر ضدّ أثرَيْهما، وإدراك كون القذارة تقتضي التطهر".¹

فمصطلح "العامة" وفق التداول الفقهي لم يكن موضوعاً للانتقاص أو التجني، ولكن ذلك لا ينفي ما سبق بيانه من موقف بعض الفقهاء الذين أُلصقوا بالعامة وصف الرعاع والغوغاء والدهاء وغيرها من أوصاف الضعف والانتقاص، وهو ما يقودنا نحو طرح مزيد من التساؤلات بشأن الموقف الإسلامي من الجماهير؛ فهل مبحث الجماهير

¹ ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق محمد الحبيب الخوجه، (قطر: وزارة الشؤون

اختصاص اجتماعي أو ديني أو سياسي؟ وهل يمكن أن نخلص إلى نظرية عامة تتكامل فيها حقيقة الجماهير وخصائصها في التراث الشرعي؟ ولأجل الوصول إلى إجابات مقنعة، أضع أمام القارئ هذه الرؤى المقاصدية وفق تنزيلاتها على واقعنا المعاصر من خلال المسائل التالية:

أولاً: الإسلام الذي جاء لرفع كرامة الإنسان، أياً كان، الذي عامله القرآن على أساس الإيمان ولم يحكم عليه في الأصل بالجهالة أو الغواية هو دليل واضح على أن الوصف الجماهيري في مجمله ليس دليل نقص، فالإسلام لم يحطّ من قدر الجموع من الناس إلا إذا كانت على ضلال، وعندما تبه القرآن في أكثر من مقام إلى أن الكثرة ليست دليل صحة، جاء ذلك في سياق تثبيت المؤمنين إذا ما ترددوا أو احتاروا من قلة السالكين وكثرة المكذابين للأنبياء والرسول. وتتبع كلمة "الناس" في القرآن، وجدت في أكثر من 172 موضعاً أن القرآن لم يصفهم بالذم إلا في سياق الضلال والانحراف، ولم يقصد إهانة الوجود البشري على أساس الأصل، فهذا أمر مستبعد تنفيه أفعال الله القائمة على الحكمة والعدل والرحمة بالناس جميعاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس: 44)، ويمكن أن أجمل مقصد الإسلام في رؤيته لجماهير الناس في ثلاثة أوصاف:

1. أنهم مستخلفون في الأرض، وهذه المنزلة تعتبر تكريماً للجنس البشري، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 30)، فمن الواضح أن الله تعالى اختار الإنسان لمهمة كان وصفها المعلن في القرآن أنها للاستخلاف في الأرض، فالجمهور الإنساني (الخليفة) لو كان فيه نقص في الأصل أو مهمشا في الأداء لما كلّف بهذا العمل العظيم الذي هو غاية من غاية خلق الله للإنسان.

2. أنهم مبتلون في الحياة الدنيا، والابتلاء الديني لأجل تحقيق غاية الوجود من العبادة والعمارة، وتمييز الناس في العلو أو السفول مبني على نجاحهم في تجاوز هذه الابتلاء، يقول الله تعالى: ﴿وَلِنَبِّؤُنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ (محمد: 31)، فليس هناك حكم مسبق قبل الابتلاء على الناس بالضلال والانحراف أو السوء والدونية.

3. أن تفاوت الناس أساسه التقوى، وهذا حكم مطلق في القرآن وفيه أبلغ البيان كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13)، فالتنوع البشري على أساس القبائل والشعوب والأوطان ليس فيه انتقاص لنوع على نوع أو طبقة على طبقة، بل هم متساوون، والفارق الحقيقي مرجعه لتقوى الفرد، وهذا الأصل في التفاوت هو في الحقيقة تمكين لمعاني التراحم والتواضع وخفض الجناح لأنها صفات ملازمة لصحيح التقوى.

وإذا سلّمنا بصحة هذه المقاصد المعلومة والظاهرة من خلال دليل استقراء الوحي في غالب النصوص دون نسخ أو تأويل معارض، فإن نظرة الانتقاص والدونية، كونهم عوام لم يبلغوا من العلم أو الشهرة أو القدرة على الغلبة، ليست صحيحة دينياً، والخير في أمة محمد ﷺ بمجموعها، وفضلها محفوظ في عدم اجتماعها على ضلاله، وحتى الضعفاء المساكين الذين ينظر لهم البعض بدونية، قال فيهم ﷺ رافعاً من شأنهم: «هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم».¹

ثانياً: إذا كانت النظرة الدينية للجماهير إيجابية في مجملها، فكيف حصل هذا التنقص والتخوف الذي سبق ذكر بعض شواهد، وتناولته كثير من الروايات والأدبيات التراثية؟! وللإجابة على هذا التساؤل نحتاج إلى أن نتعرف إلى المجالات الأخرى التي

¹ رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصلحين في الحرب، ج3،

ساهمت في صناعة التصور الذهني عن الجماهير، فهناك عدد من النظريات التي حاولت الاقتراب من هذا المفهوم بتجريده من ملبساته الواقعية عند حراك الجماهير وتدخلاتهم في صناعة الأحداث، ومن أولئك الذين درسوا معنى الجمهور هذا وسياقاته المفاهيمية: مايكل هارت، وأنطونيو نغري، حيث حاولوا أن يفرقا بين الجمهور والشعب، ومما قالاه: "إن هذه الذوات الاجتماعية هي سلبية بشكل أساسي، بمعنى أنها لا تستطيع الفعل من ذاتها وبذاتها؛ بل يجب أن تنقاد، ويمكن أن يكون للحشد أو الغوغاء أو الرعاع نتائج اجتماعية - وغالبا ما تكون نتائج مدمرة - لكنها عاجزة عن العمل بذاتها حسبما تريد، وهذا يشرح كونها معرضة للاستغلال وتعمل على أساس المشترك بين المفردات، والجمهور هو من الوجهة الداخلية ذات اجتماعية معتادة لا يقوم تركيبه وعمله على هوية أو وحدة، وإنما على ماهو مشترك".¹

وفي موطن آخر، قالوا: "الجمهور حشد أو فيلق، وهو يتألف من عناصر لا حصر لها تظل مختلفة واحدها عن الآخر، ومع ذلك هي متواصلة ومتعاونة وتعمل معاً"، ثم يضيفان: "وهذا هو الشيطان حقيقة"،² قاصدين بالشيطان القادر على كل شيء، واختاروا أن الجمهور مفهوم طبقي، ولعل هذه الاختيار يعود إلى خلفيتهما الماركسية، فقد توسعا في دور الجمهور الاجتماعي السياسي، ولعل هذا الدور المتشابك مع السلطة ساهم في صناعة هذا الانطباع. ولتسليط النظر على هذا السياق من النظر والمتعلق بالموقف الاجتماعي الأقرب لتفسير الموقف من الجماهير، لا يسعنا إلا الرجوع إلى ما كتبه الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون (1841-1931م) في توصيفه العميق لهذه الظاهرة من أبعادها الاجتماعية والنفسية

¹ مايكل هارت وأنطونيو نغري، كتاب الجمهور: الحرب والديمقراطية في عصر الإمبراطورية، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2015م)، ص188.

² المرجع السابق، ص255-256.

في كتابه ذائع الصيت بعنوان "سيكولوجية الجماهير"¹، وكان عمله العظيم من خلال تقديم عدد من الدراسات العلمية إنصافاً للجماهير الذين ظلموا جراء ربطهم بالإجرام والفوضى، بينما قد يكونون صوتاً للحق ومحرضاً للفضيلة، كما قام بتحليل واقعهم الثوري والاجتماعي، وطبيعة انسياق الجماهير خلف قادتهم المؤثرين كهتلر وموسيليني وغاندي وماو تسي تونغ وغيرهم، ولا يخفى أن لوبون لم ينفِ البُعد الديني والعقدي في شحذ الجماهير إلى أشد صور الهياج الشعبي، ولكنه جعل للعرق التاريخي دوراً محورياً في جمع الناس وتحريرهم، فالحراك الجماهيري يجيل الجميع مهما اختلفوا وتعددوا إلى روح واحدة وعاطفة مشتركة تقضي على التمايزات وتخفف مستوى الملكات العقلية، مثل المركب الكيماوي الناتج عن صهر عدة عناصر مختلفة، ولعل من أهم نتائج دراسة لوبون عن الجماهير أنهم يمتلكون وحدة ذهنية في حالة كان التجمع نفسياً، فهو يفتق بين الاجتماع المتجانس كاجتماع الطوائف والزمر والطبقات، وبين الاجتماع غير المتجانس كجماهير الشارع؛ وهؤلاء يصفهم بالمغفلين، وهناك منهم غير مغفلين مثل اجتماع هيئات المحلفين والمجالس البرلمانية وغيرها، ولكنهم إذا تحركوا جماهيرياً - مهما اختلفت تجمعاتها - ينساقون نحو أفعال لا يقدرّون نتائجها المآلية، وحتى لو بلغوا مستوى عالٍ من الثقافة أو العقيدة أو الشأن الاجتماعي فإنهم في العادة يحتاجون للخضوع السحري الأشبه بالتنويم المغناطيسي لقائد محرّك يجذبهم بهيبته وخطابه أكثر من عقلانيته؛ ولذلك كان أعظم قادة الجماهير من ذوي الذكاء العاطفي المؤجّج للحماس والمحفّز للخيال بحيث تهيم الجماهير في طاعته دون تفكير.

ثالثاً: طرأ في تفسير الحالة الجماهيرية مستجدات عديدة ساهمت في خلق تصور مختلف ربما لم يطرأ على ذهن لوبون أو فرويد أو بودريار أو موسكوفيتشي ممن بحثوا هذه

¹ غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة: هاشم صالح، (بيروت: دار الساقي، 6، 2015م).

الظاهرة¹، وأهم هذه المستجدات تلك التجمعات الجماهيرية الكبرى التي لا يربطها العرق التاريخي ولا المعتقد الديني؛ بل فرضت الثورة التقنية المتسارعة تجمّعها الهائل بشكل مذهل، فمواقع التواصل الاجتماعي على وجه التحديد خلقت جماهير صغيرة في ساحات افتراضية، وأصبحت تتداعى عند كل محفز للاجتماع لدرجة أنها أدمنت حضورها الجماهيري بشكل يومي أو أقرب من ذلك، كما أنها وجدت ضالتها في الخدمة الإلكترونية التي تمنح الفرد الشغف بالتواصل دون ملل أو انقطاع من خلال الدخول السريع عليها بفضل تطور أجهزة الاتصال الذكية، والقدرة على التأثير من خلال نشر الصور والمقاطع، وهو ما كان لوبون يؤكده في أكثر من موضع بأن "الجمهور يفكر عن طريق الصور"²، وسأتحدث عن هذا الجانب من غواية الصورة في المطلب الثالث من البحث.

وفي جولة سريعة على أهم برامج التواصل الاجتماعي، نجد بوضوح كيف أصبحت المجموعات في "الواتس أب" مثلاً تسوق الناس نحو آراء معينة أو تحليلات غريبة، ويتأثر بها المشاركون رغم وجود بعض المتميزين علماء وفقهاً، وكيف أصبح "تويتر" و"السناب شات" ينشران عدوى القبول لأفكار ورؤى من خلال نشرها والتعليق العاطفي عليها، والتكرار الصامت الذي يجعلها تنساب بلطف خفي إلى أعماق الوعي بلا وعي، وهذا ما جعل الشائعة أحياناً تبلغ في لحظات قصيرة أصقاعاً بعيدة في العالم ليتداولها الملايين في لحظات دون تمحيص لمصداقيتها العقلية، وحتى لو ثبت كذبها عند البعض فهناك الجمهور الأكثر من المستسلمين التابعين الذين لا يباليون بردها ما دام هناك تراضٍ واسع لقبولها، وأحياناً يحصل التجمهر الافتراضي بمجرد أن يقرأ الفرد أو يسمع كلمة الحرية أو المساواة أو الحقوق وغيره، فيتحول مع غيره إلى تابعين منقادين

¹ انظر: سيجموند فرويد، علم نفس الجماهير، ترجمة: جورج طرابيشي، (بيروت: دار الطليعة، 2006م)، وكتاب بودريار: "ظلال الأغلبية الصامتة" الذي نشر عام 1982 بفرنسا.

² انظر: لوبون، سيكولوجية الجماهير، ص 67.

يستسهلون كل المخاطر لأجلها.

فمن خلال ما قدّمه لوبون من دراسات حول ظاهرة الجماهير، نرى أن أهم الوسائل لإدخال الأفكار ببطء وصمت وعمق إلى روح الجماهير - وغالبا ما يستعملها القادة المؤثرون - هي: التأكيد والتكرار والعدوى¹. ولقد ساهمت التقنية اليوم في تأجيج هذه الأساليب بشكل مذهل بالتأكيد على موضوعات معينة يستطيع أي شخص أن يذكرها في حسابه وأمام متابعيه في تلك المواقع، والتكرار وإعادة السمة الأبرز، فهي التي تفتح أبواب المنافسة بين كل المشتركين في تلك المواقع للوصول إلى أكبر عدد من القبول أو التعليق أو الدخول والمشاهدة، وبالتالي تصبح العدوى في هذا المناخ في تهيّج مذهل تكفي شرارة واحدة لدفع الناس إلى الشارع بلا تردد، وعلى سبيل الاستشهاد، كان المقطع المنشور في موقع "الفيسبوك" الذي صورته صديقة شابٍ أسود من ولاية مينيسوتا الأمريكية، قُتل على يد شرطي أبيض في 7 يوليو 2016م، سبباً في خروج مظاهرات بالآلاف في غالب الولايات الأمريكية، والانتقام قتلًا لعدد من رجال الشرطة، ولم تنفع تدخلات الرئيس السابق أوباما للتهدئة، وكل ذلك ما كان ليقع لولا هذا المقطع وتحفز الجماهير للاستجابة المباشرة عندما انطلقت شرارتها.

ويمكن الجزم أن البرامج والمواقع التواصلية كانت السبب المؤثر والأبرز في صيرورة غالب أحداث العالم المعاصر، فتأجج ثورات الربيع العربي كان من إسهام (تويتر) و(الفيسبوك)، ولم يعد قادة الرأي العام اليوم الساسة أو المفكرون فحسب؛ بل ظهر شباب مجاهيل لا يملكون أي بضاعة سوى فن التواصل والإغراء واستمالة الجماهير، استطاعوا بهذه المهارات تحريك المجتمع بما تعجز القوة العسكرية عن تحقيقه، ولم تقف هذه القوة الناعمة عند هذا الحد فحسب؛ بل أصبحت السوق الاقتصادي المغربي للأرباح التي لا تعرف معنى الكساد الذي يمر بالعالم، والطريق الأمني والاستخباراتي

¹ انظر: المصدر نفسه، ص132.

الأول لمراقبة الناس ومتابعتهم دون الحاجة للأموال أو المجددين، إنها وبجدارة الساحة الجماهيرية الأولى التي تعيد صياغة الأفكار وصناعة التوجهات للعالم الحديث. ويجب أن ندرك أننا لسنا أمام إبداعات تقنية وامتع فردية فحسب، بل نحن أمام معطيات تغييرية لها قدرة على الحشد والتأثير غير المسبوق، وقدماً قال لوبون: "إن مجيء عصر الجماهير يمثل إحدى آخر مراحل حضارة الغرب"، وبنّبه إلى "أن التاريخ يعلمنا أنه عندما تفقد القوى الأخلاقية التي تشكّل هيكل المجتمع زمام المبادرة من يدها، فإن الانحلال النهائي يتم عادة على يد هذه الكثرة اللاوعية".¹

ثانياً: الجماهير الافتراضية وحتمية صياغة المستقبل

قد ذكر بشكل موجز واقع الجمهور في تراثنا الديني وطبيعته في الواقع الاجتماعي، وتأثيراته على مواقع التواصل الشبكي، ولأهمية الموضوع، سأكمل تناوله من زاوية أخرى متعلقة بالجماهير الافتراضية ودورها في صياغة طبيعة المجتمعات القادمة، ومع أن مصطلح "الجماهير الافتراضية" بدأ ينتشر ويفرض حقيقته بشكل واقعي، فإن الدراسات النفسية والاجتماعية تجاهه لا تزال بكرةً من حيث التناول المنهجي للظاهرة، بيد أن هناك جهوداً معرفية حاولت تقديم دراسات وتحليلات لهذه الظاهرة، لكنها جاءت من خلال البعد الاقتصادي الذي ساهم في صناعة حقيقة هذه الظاهرة، وبالتالي دراستها بوصفها واقعا مرتقبا، وكانت البدايات في أوائل السبعينات ومن خلال علماء وساسة يابانيين قدموا رؤيتهم للاحتياج القادم الذي ستركز فيه العمل على إنتاج الحواسيب المرنة، وسموا هذا النموذج القادم بـ "جوهوكا شاكاي" (Jōhōka Shakai)، وتعني ترجمته "مجتمع المعلومات"، وتوالت الدراسات ما بعد الصناعية والمبشرة بعصر التقنية وثورتها المعلوماتية، وكان هذا التقدم المتسارع يؤكد وجود تحول مجتمعي وأيديولوجي كبير سيتزامن

¹ انظر: المصدر نفسه، ص 46-47.

مع هذا النمو أشبه بما مر على المجتمعات الإنسانية عندما تحولت من مجتمعات زراعية إلى صناعية، وما رافق ذلك من تغيرات هائلة على الحياة والإنسان.¹

هذه الحالة الجديدة من التجمهر الشعبي في مواقع افتراضية من خلال شبكة الإنترنت، ينظر لها في الغالب من زاويتين، الأولى تنظر لها بوصفها منتجا تقنيا رائعا ساهم في خلق مساحات شاسعة بلا حدود للتواصل بين البشر، كما أنها قرّبت المعرفة ويسّرت سبل الوصول للمعلومة، وخلقت أجواءً من الإبداع والاستمتاع لدرجة الإدمان أحيانا بين الناس. والزاوية الأخرى تنظر لهذا المجتمع الافتراضي نظرة سلبية، ويغلب عليها الحذر وافتراض المخاوف، وهذه النظرة في الحقيقة ليست سلبية بمعنى الذم والانتقاص؛ بل لأنها واقع جلب معه تغيرات مذهلة أشعرت شهود هذه اللحظة بالخوف والخطر وانسحاب البساط فجأةً من تحت أرجلهم، وبما أن الحالتين موجودتان، وأقصد المنافع والمضار من ذلك التشكل الجماهيري الشبكي، فسأقصر الحديث على التوقعات التي تحملها تلك الجماهير الافتراضية على مستقبلنا القادم لأسباب كثيرة، منها: أن سكرة التعاطي مع هذه البرامج والمواقع خلق غفلة عن إيجاد توازنات مع جوانب الحياة الأخرى (معتقدات، أعراف، قيم) والتي في فقدانها خطر الانحراف على الإنسان، كما أن التعاطي الأمني مع تعوّل التواصل الشبكي أوجد رؤية واحدة تهيمن على الجماهير عند مناقشة هذه المواقع ومعطياتها من زاوية الخطر المهدّد للأمن والسلطة والمجتمع، وبالتالي لن تكون هناك معالجات شمولية ما دامت النظرة السلبية تمتلكها جهة واحدة، كما أن تحديات المستقبل لمنطقتنا تجعل من المهم النظر المسبق لهذا التحدي الصامت الناعم الذي قد يجعل التحديات السياسية والاقتصادية اليوم هامشية بالنسبة لحشد التحديات التي يحملها ذلك المستقبل، ولعلي أوجز هذه التوقعات التي تحملها لنا الجماهير الافتراضية - بعيدا عن الأحكام الجاهزة، ضدّهم أو معهم - وفقا للرؤى التالية:

¹ انظر: دارن بارني، المجتمع الشبكي، ترجمة: أنور الجمعاوي، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،

أولاً: تشير الإحصاءات التي أظهرتها مجلة "محرك البحث" من خلال بيانات النمو بين عامي 2010م و2015م، أن عدد مستخدمي موقع "لينكدإن" يصل إلى 97 مليون، وموقع "سناب شات" إلى حوالي 200 مليون، في حين يقترب عدد مستخدمي "تبلر" من 230 مليوناً، أما موقع (تويتر) فيصل عدد مستخدميه إلى 316 مليوناً، بينما يصل عدد مستخدمي "غوغل بلس" إلى 343 مليوناً، ويتفوق عليه موقع "إنستاغرام" الذي يصل عدد مستخدميه إلى 400 مليوناً، أما المواقع الأكثر استخداماً فهما موقع "يوتيوب" وموقع "فيسبوك" ويقدر عدد مستخدمي موقع "يوتيوب" بأكثر من مليار مستخدم، في حين يتجاوز عدد مستخدمي موقع (فيسبوك) 1.5 مليار مستخدم.

وبحسب المجلة، فإن عدد الحسابات النشطة على وسائل التواصل الاجتماعي تصل إلى 1.7 مليار حساب، من أصل 2.1 مليار حساب، في حين أن عدد المستخدمين للإنترنت يصل إلى 3 مليارات مستخدم، أي ما يعادل 45 بالمائة من إجمالي عدد سكان الأرض. وبحسب الفئات العمرية لمستخدمي التواصل الاجتماعي، فإن 89 بالمائة من المستخدمين هم في الفئة العمرية 18-29 عاماً.¹

تدل هذه الدراسة التي نشرت في فبراير 2016م على الإقبال الواسع على مواقع التواصل الاجتماعي، ولسنا في حاجة إلى مزيد إثبات لذلك؛ لأنه رأي العين وحديث الناس، كما نلاحظ تعاطي أغلب الشباب الشبكات التواصلية، وهذا الجمهور الشاب ربما وجد حاجته النفسية والاجتماعية في مثل هذه المواقع، فهي تمتاز بسرعة الاستجابة لكل ما يتمناه الفرد، وسرعة التأثير في محيط أقرانه ومتابعيه، وسرعة النشر لكل ما يود الحديث أو التعبير عنه، وسرعة التعليق ثم رصد الاستجابة لتلتهفه برجع الأصداء وزيادة متابعيه، كما أنها تسهم في سرعة الظهور والشهرة متخطيةً عتاة الفن والرياضة، هذه

¹ انظر: مجلة محرك البحث، نقلاً عن موقع: <http://www.skynewsarabia.com/web/article/815451>

المعطيات كلها لا يمكن أن تتوفر في الواقع الحقيقي كما تظهر وتتجسد بوضوح في المجتمع الشبكي، هذه الصفات هي غالب ما يثير الفرد خصوصاً الشباب للإدمان على هذه المواقع دون انفكك، وحتماً أصبحت هناك علاقة طردية بين صفات الشباب الفطرية وطبيعة المواقع الشبكية مما يجعل الانسجام منفرداً في العشق المتبادل.

ثانياً: ماذا يعني هذا الإقبال الحاضر من غالبية سكان الأرض على الشبكة الاجتماعية بالنسبة لمستقبل الجماهير الافتراضية؟ هذا التساؤل المستقبلي يثير عدداً من الفرضيات، أصبح بعضها وقائع مشاهدة قد تقدم إجابات على التساؤل المطروح، أهمها أن القيادة المجتمعية سوف تدار من غرف الدردشة ومواقع التواصل الاجتماعي شئنا ذلك أم أئينا، ويمكن أن تتحكم فئة ناشطة على مواقع التواصل الاجتماعي في تحديد رأي عام وتهيئة المجتمع لقبوله، فلا يشترط أن يكون الخطاب عقلاً وقلوباً، بل يكفي الانتشار السريع و قبول الأعداد الكبيرة والحشود الافتراضية في صناعة القبول بالفكرة أو ردها مهما كانت غرابتها منطقياً، فلون قميص لمشهور، أو خبر زواج لثري، أو اعتداء على امرأة يمكن أن يشعل المجتمع كله بملايين الرسائل خلال ساعات قليلة، كما أن الشبكية العالمية تنمي الموثوقية بهذه المنابر ولو كانت في غاية البساطة؛ والسبب أنها كسرت الاحتكار الرسمي على المنابر، وصنعت منابر تمارس التحدي العلني للتلفزيون والصحف الرسمية من حيث السرعة والتعاطي مع الأحداث وكشف المستور منها، وهذا يجعل خيار المؤسسات الرسمية إذا ما أرادت الإنكار ومغالطة الواقع أن تواصل العناد والاستمرار في خلق الروايات المسيسة وفق رؤيتها الرسمية؛ مما قد يؤدي بها في نهاية المطاف إلى انخفاض جمهورها وفقدان مصداقيتها، أو أن ترضخ لهذه المنابر والمواقع الافتراضية.

إن حجم التعاطي اللامحدود مع شبكة المعلومات وتقنياتها التواصلية وفق ما تمليه حاجة كل فرد حسب رغباته الطبيعية أو الشاذة ستحدث تراكماً هائلاً للمعلومات، مما يؤدي إلى صعوبة حجب شيء منها، مع تنامي القدرة على الوصول إلى أي ممنوع. وفي ظل أيديولوجيات تتشكل مع قوة المجتمع الشبكي، تصبح المعلومة ذات القدر العالي من

الأهمية في يد من لا يقدر أهميتها، وربما يوظفها في مسابقات كارثية أحياناً، يقول العالم الأمريكي كارل ساغان المتوفي في 1996م: "نحن نعيش في مجتمع يعتمد تماماً في حياته على العلم والتقنية، إلا أنه تمكن بطريقةٍ مذهشة من إخراج الأمر، بحيث إنَّ أحداً من أفرادها لا يفهم شيئاً عن العلم أو التقنية، هذه وصفة واضحةٌ لكارثة"¹.

ثالثاً: هوية الجماهير التقليديين في الغالب تكون مؤطرة في دوائر معروفة، وتبقى في الحالات العادية متماسكة لعهود طويلة، كالحال في الهويات الدينية والعرقية والمذهبية والوطنية وغيرها، هذه الهويات التي تمثل ذات الإنسان قد تكون مستقلة عن غيرها أو متداخلة في تكامل لا تتعارض فيما بينها، كأن يكون الإنسان مسلماً وعربياً وسعودياً أو مصرياً وغير ذلك، ولكن هل هذا هو حال الجماهير الافتراضية في ساحات مواقع التواصل الاجتماعي على سبيل المثال؟ أعتقد أن طرح مفهوم الهوية في هذا السياق له دلالة المهمة في معرفة تداخل الهويات وتناقضها أحياناً لذوات تستر خلف ألقاب مجهولة، وشخص مخفية لا تُعرف. وأمام نزعة النرجسية التي بدأت تغزو الجماهير، وأمام شغف التعبير عن الذات حول كل شيء، يعلّق عالم الاجتماع الأمريكي مانويل كاستلز على صورة هوية الجماهير بقوله: "إننا نبتدع ذواتنا على نحو متواصل، فهويتك على الحاسوب هي محصلة حضورك المشتت، ذلك أن هويتك شديدة السيولة والتعدد إلى الدرجة التي تجعل مفهوم الهوية ذا حدود فضفاضة"². وليست الهوية فقط التي أصبحت أكثر سيولة مع مواقع التواصل الاجتماعي؛ بل كثير من المفاهيم والقيم الصلبة أضحت في مهب ذلك التيار الهادر من السيولة التي أنتجتها الشبكة العالمية، فكما أن الإنسان يستطيع أن يتقمص عدداً من الهويات حسب اختياره؛ باعتبار أن طبيعة التخفي خلف المعرّفات تشجع لهذا التقمص الفريد من تعدد القبعات، فإن ذلك يضعنا أمام تشكلات غريبة مثيرة

¹ انظر: كارل ساغان، كوكب الأرض، ترجمة: شهرت العالم، (الكويت: عالم المعرفة، 2000م).

² انظر: الاقتباس من كتاب المجتمع الشبكي، ص 163.

للقلق في المستقبل، وفي المقابل أيضاً يمكن أن تدمج تلك الهويات في هوية واحدة ينادي لها جمهور المواقع انتصاراً لقضية أو تفاعلاً مع تظلم معين، وكثيراً ما تظهر هذه الهوية الجامعة في مطالب العدالة الاجتماعية ورصد الانتهاكات الحقوقية، أبرز أمثلتها حركات مناهضة العولمة وتوافق أنصارها في العالم للتظاهر والشجب بعد كل اجتماع للدول الصناعية الكبرى، وفي مظاهرات الربيع العربي مثال آخر لاندماج تلك الهويات نحو المطالب والشعارات التي رفعتها، كما أن الحوارات الشبكية لعبت دوراً مهماً في زيادة الوعي الجماهيري تجاه قضايا اليومية، وزادت من تفاعله في المشاركات الديمقراطية؛ بل أسهم في بلدان كثيرة في صناعة قرارات سيادية كبرى. هذا النسق من التبادل الحوارية خارج مؤسسات الدولة خلق مجالاً حيويًا عامًا لصناعة إصلاحات ونقد كثير من قضايا الواقع المعاش، سبق أن تمناه الفيلسوف الألماني يورغان هابرماس في نظريته المعروفة بـ"الفعل التواصلي"، ورغم أن تلك النظرية التي خرجت في أوائل الستينات الميلادية كانت ماثراً للنقد فإنها اليوم تتحقق مع مواقع التواصل الاجتماعي بصورة لم يكن يحلم بها هابرماس.¹

رابعاً: يصف بعض الباحثين أننا على أعتاب ثورة صناعية رابعة، أطلق نذيرها البرفسور كلاوس شواب، عندما قال في مؤتمر دافوس الأخير: "إن الإنسانية تقف على حافة ثورة تكنولوجية من شأنها أن تحدث تغييراً جذرياً في الطريقة التي نعيش ونعمل بها، وذلك التغيير سيكون بشكل لصيق ومتواصل، وسيزداد تعقيداً بصورة لم تشهدا البشرية من قبل"،² وكان يقصد تلك الثورة التقنية المتقدمة، والروبوتات الآلية، والأبعاد الثلاثية، والعالم الرقمي، ومواقع التواصل الاجتماعي، وهي بلا شك ثورة حقيقية في عالم افتراضي، إنها ثورة رقمية تفتح الباب لتوديع أجيال الفخامة والرتابة والتأني الزائد لتستقبل شباب المجتمع الافتراضي الواقعي القلق الذي يأكل

¹ انظر: المصدق، حسن، هابرماس ومدرسة فرانكفورت، (المغرب: المركز الثقافي العربي، 2005م).

² انظر: صحيفة الشرق الأوسط الدولية، العدد رقم (13586) 8 فبراير 2016م.

ويتحدث ويعمل ويستمتع لموسيقى الرب الصاخبة لأجل القيام بصفقة أو إجراء عقد بالملايين، ومزاجه الثائر وطبيعته النافرة تدل على هدوء مصطنع وفهاهة غير متكلفة، لكن مفاتيح الثورة الرابعة معلقة في رقابهم لا تفارقهم حتى في لحظات سكونهم المتخيل عند النوم، ولتأخذ مثلاً واحداً على هذا النمط القادم من خلال أتمودج القوة الجديدة لإمبراطورية (الفيبيوك) التي لم يتجاوز عمرها 12 عاماً، حيث تمكنت من تكوين أكبر جمهورية افتراضية في العالم بما تملكه من مستخدمين يتجاوزون ملياراً ونصف، منهم مليار يتصفحون الموقع بما لا يقل عن 20 دقيقة في اليوم، لتصبح سادس شركة من حيث القيمة على سطح الكوكب، وتقدر قيمتها بـ325 مليار دولار، علمًا أن مؤسس (الفيبيوك) مارك زوكربيرج لا يزال في أول الثلاثين من عمره.¹ لقد جعل هذا الجيل القادم بثورته الصناعية ذات الأيديولوجيا الناعمة والصارمة في آنٍ واحد العالم في حيرة شديدة من متطلباته، فالارتباط العضوي بشبكات التواصل ينتهي في قبضة شركات جديدة في عالم الفضاء التقني، ومع أنها قلبت الطاولة على نمط التجارة والاستثمار وأصبحت المحرك لعجلة الاقتصاد العالمي، إلا أن تأثيراتها على المجال العام يبقى الأعظم. وتطرح اليوم تساؤلات لا ينفك البعض عن ربطها بنظرية المؤامرات، حول الاستفادة من هذه المعلومات الشخصية للمليارات البشر، وانحصارها في شركات أمريكية محددة، وتغلغلها في الحياة الخاصة بداية من الفرد وانتهاً بأنظمة البنوك والأرصاء والملاحة وغيرها.

خامساً: تأسيساً على ما سبق ذكره من معطيات واقعية واستشرافات مستقبلية، هل ستكون الجماهير الافتراضية نكبةً على مجتمعاتها خصوصاً الإسلامية والعربية؟ إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى دراسات علمية وميدانية ترصد هذه الظاهرة في كل مجتمع للتعرف إلى سبل التعامل معها، وأحسب أن كثيراً من مؤسساتنا الرسمية التي لا

¹ انظر: صحيفة الإيكونوميست، عدد: 9 أبريل 2016م.

يزال بعضها يجهل التعاطي مع البريد الإلكتروني، لن تقدم شيئاً سوى المشاهدة من بعيد وترك الأمر لأجهزة الأمن والقضاء، وبشكل عام أعتبر هذه الظاهرة الجماهيرية إيجابية إذا تمت مراعاة أمور ثلاثة:

أ- أن تدمج هذه الجماهير الافتراضية مع الواقع الحقيقي بمعتقداته الدينية وقيمه الأخلاقية، والوصل بينهما يخفف من إدمان تعاطي تلك الشبكة السائلة حتى لا تندفع أجيالنا المرتبطة بها إلى الانفصال التام عن مجتمعاتها رغم تراكم أجسادها فيها.

ب- لا يكفي الوعظ والإرشاد لمنع انحرافات الجمهور الافتراضي؛ بل لا بد من إيجاد مبادرات تحوّل طاقاتهم نحو المفيد من مشاريع التنمية والإصلاح، وإشراكهم إشراكاً حقيقياً في القرار والبناء، ولو حصل هذا التقارب بينهم وبين مؤسسات الدولة والمجتمع، فإن ذلك يعد بمثابة صمام أمان لأي مواجهة تفرضها أي أزمة في لحظة غفلة يقتنصها عدو متربص.

ج- من أعظم الأخطار أن تتحول مواقع التواصل الاجتماعي إلى ساحات حرب بين فئات المجتمع الواحد، وتصبح الأحداث مهما بلغت بساطتها سبباً لتأجيج الخلاف والاصطفاف، والمشهد اليوم في غالب مجتمعاتنا العربية يدعو للقلق ويصيب المتابع بالوجل؛ لأن التماهي في الخلاف سيفقدنا أي عودة نحو مشترك جامع، ويجعل مجال الوحدة عسيراً حتى وإن ارتبط الأمر بمواقف كبرى لا تقبل التعددية في الرأي، وحينئذ نصبح من حيث لا نشعر جزراً متنافرة لا يجمعها سوى رباط الجغرافيا المهترئ.

وقديماً قال المتنبي:

فإن تَفُقَّ الأنامَ وأنتَ مِنْهُمُ فإنَّ المسكَ بَعْضُ دَمِ الغزالِ

ثالثاً: غواية الصورة وتأثيراتها على الجمهور

يعتمد عقل الإنسان في التفكير على مدخلات عديدة من الأفكار والآراء والتصورات ويتم في هذا العقل، أو لنقل (المختبر) إجراء عمليات ضخمة تحلل وتقرب وتربط بين المعلومات المخزنة والتصورات المتراكمة للخروج بقرار أو رأي يحتاجه الإنسان

أمام لحظة عابرة يعيش من خلالها موقفاً أو يتذكر إنساناً أو يتدبر معنى ورد على ذهنه، وقد يسعفنا على تصوّر هذا التمازج الفعّال (هيوم) في نظريته حول العليّة من خلال التجاور والتتابع والارتباط الضروري بين الواقع وانطباعاتنا داخل الذهن.

هذا الشكل الطبيعي للتفكير وبناء الوعي حيال موضوع ما؛ تناوله عدد من الفلاسفة القدماء خصوصاً ديكرت وبيكون وكانط وغيرهم في تحليل الأفكار والخيال والواقع التجريبي والعلاقة بينهما، ولكن أظن ذلك قد تغير، وربما تم نفسه؛ ليس لأنه كان خطأ فتبين لنا بعد ذلك الصواب؛ بل لأن العقل قد دخل عليه في التصور مؤثر جديد، لم يسبق أن حدث بهذا الشكل من قبل، ألا وهي (الصورة) المعاصرة الثابتة أو المتحركة.

وبالرجوع للحقائق الغيبية والتاريخية، نجد أن للقرآن الكريم موقفاً واضحاً من تأثير الصورة على تفكير الإنسان وتغيير قناعاته، ولعل من أعظم الشواهد في ذلك، تحذير القرآن من المنافقين، بوصفٍ يختزل هذا المعنى من التحذير كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مَّسْنَدٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ يَوْمَهُمُ الْبَشِيرُ﴾ (المنافقون: 4)، فالمظهر الخارجي أو الصورة الظاهرية تجعل الإنسان يُعجب بالأجساد، فتغيب معاني التقييم الأخرى فيتأثر بعيداً عن البرهان والمنطق، وهذا قد حصل بالفعل مع بني إسرائيل عندما غاب عنهم موسى للقاء ربه تعالى، ثم قام السامري بجمع الحلي وصناعة عجل من ذهب له خوار، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (طه: 88-89)، ومع ذلك عكفوا عليه يعبدونه من دون الله رغم وجود نبي مرسل يعيش معهم، فالسامري دغدغ مشاعرهم بعيداً عن منطقتهم بسحر الصورة المتجسدة والمتحركة أيضاً، فتاهت عقولهم شغفاً بهذا الشكل من التصوير، ولأجل ذلك ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ»،¹ والسبب كما

¹ البخاري، صحيح الجامع، باب عذاب المصورين يوم القيامة، رقمه: 5606، ج5، ص2220.

قال الخطابي: "إنما عظمت عقوبة المصور لأن الصور كانت تعبد من دون الله؛ ولأن النظر إليها يفتن، وبعض النفوس إليها تميل"،¹ فالتاريخ يثبت حقيقة أن الصورة الباهرة تتحول إلى فتنة آسرة، وأكثر الأصنام التي عبدها العرب في الجاهلية هي لأناس صالحين صوروهم على هيئة تماثيل، ومع تقادم الزمن وضعف التوحيد وتسلب الشيطان توافقت النفوس المشدودة إلى مادية الأرض إلى تقديسها من دون الله، حتى المسيحية كانت متزدة في تجويز رسم المسيح ﷺ وصنع التماثيل له، فكانت البداية من القرن السابع تقريباً، ثم حاربتها البروتستانتية، ثم جاء عصر النهضة فازدهرت بشكل كبير صور المسيح وتماثيله في أغلب كنائس العالم، ولا تزال أغلب المعابد في كافة الملل والنحل بالعالم تمارس تسميط الصور في ذهن المتلمي لديانة ما؛ كونها الأقرب للتأثير بسبب قوة الحاسة البصرية على بقية الحواس، ولأنها توصل رسالة واضحة يفهمها الجميع حتى الأمي، بخلاف الخطب والكلمات المقروءة التي تحتاج إلى أعمال العقل في التحليل والاستنتاج والربط بين المعاني والألفاظ.

أمام هذه الحقائق الدينية التي تبين خطورة انحراف الصورة في تشكيل التصور وانجاس العقل في أطرها الخادعة، يُطرح العديد من التساؤلات بشأن الموقف الأمثل من طغيان الصورة اليوم بكل تقنياتها الحديثة وجاذبيتها الفاتنة، والتي تلاحقنا في كل مكان، وأصبحت البديل المنافس للكلمات والأرقام، والناظر إلى حجم التعاطي اليومي مع الصورة المتحركة أو الثابتة يُذهل من حجم الأرقام المتزايدة كل عام، فالمملكة العربية السعودية على سبيل المثال تعتبر الأولى عالمياً في مشاهدة المقاطع المرئية وتنزيلها من الموقع الشهير (اليوتيوب) بواقع 90 مليون مشاهدة يومياً،² ويشير تقرير آخر إلى أن السعوديين هم أكثر العرب استخداماً لبرنامج (السناب شات)، كما احتلوا المركز الثاني

¹ ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (بيروت: دار المعرفة 1379هـ)، ج 10، ص 397.

² انظر: <https://www.alarabiya.net>، 2015/12/10م.

عالميا في عدد المستخدمين الفعليين.¹ أمام هذه النازلة لما بعد الحداثية، أضع بين أيديكم بعض الملاحظات:

1- يعدّ فقه الصورة اليوم من أدق مجالات التصور وأهمها الذي ينبغي أن تبني عليه الأحكام؛ "لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره"²، والصورة اليوم قد تحيل الكذب صدقا، وقد تخدع الحاذق المتمرس وتُظهر له واقعا مزيفا لا يُشك في حقيقته، فعندما يبني الفقيه حكمه على تلك الصور التي تعرضها مواقع التواصل والإعلام الجديد فإن عليه مضاعفة الحذر، فليست كل صورة تظهر في الإعلام أو يتداولها الملايين، أو تبكي لها العين ويدمي لها القلب واقعا حقيقيا مسلم به، فالمغالطات في التصور تقود للغلط في الأحكام، وكما من الصور والمقاطع التي أجبرت بعض المفتين على أن يحكموا على فعل أو حالة أو شخص أو جماعة بما هو قطعي في الوجود أو الحرمة؛ بينما الواقع مزيف بالكامل، ويقول ابن القيم في هذا الصدد: "كم من باطل يخرج الرجل بحسن لفظه وتميجه وإبرازه في صورة حق؟ وكم من حق يخرج به تهجينه وسوء تعبيره في صورة باطل؟ ومن له أدنى فطنة وخبرة لا يخفى عليه ذلك، بل هذا أغلب أحوال الناس، ولكثرته وشهرته يستغنى عن الأمثلة"³.

2- يعاني المسلمون في كثير من المناطق من انتشار الفكر المتطرف خصوصا فكر (داعش)، ويستغرب الكثير من المراقبين كيف يتم تجنيد شباب أغرار بسرعة كبيرة وفي مناطق تمثل أمانا علميا وحصنا من الشبهات؟ وكيف يعتنق هؤلاء الشباب أخطر أنواع الأفكار صداما وعنفا وحربا على الجميع، وينفذون أوامر قياداتهم الضالة بكل خضوع وطاعة حتى

¹ انظر: جريدة الرياض، عدد 2015/7/20م.

² الفتوحى، محمد بن أحمد المعروف بابن النجار الحنبلي، شرح الكوكب المنير لابن النجار، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط2، 1997م)، ج1، ص17.

³ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، إعلام الموقعين عن رب العالمين، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1411هـ)، ج5، ص99.

لو أمر بقتل أمه وأبيه؟ ولهذا تنور كثير من الأسئلة في تحليل هذه الظاهرة الخطيرة، وفي تقديري فللصورة تأثير كبير على الشباب الذين لم يعتادوا على حلقات العلم ومجالس الفقهاء؛ بل غالبهم من مدمني الألعاب القتالية الإلكترونية ومقاطع اليوتيوب وأفلام الإثارة، ولهذا أدمنوا هذا النمط من التلقي، وفطنت (داعش) أو من يقف خلفها إلى ضرورة استغلال هذا الشكل من التجنيد من خلال سحر الصورة وجاذبية المقطع التصويري دون الحاجة لقناعات خطائية وبراهين عقلية، وفي دراسة قام بها معهد (بروكنغز)، تبين أن غالبية الحسابات تنشط من السعودية من خلال وجود أكثر من 866 حسابا، وكشفت الدراسة أيضا عن وجود أكثر من 3 ملايين تغريدة تروّج لداعش وتؤيدها على تويتر في السعودية، وأكثر من 1.7 مليون مقطع فيديو إرهابي متاح للمشاهدة.¹

3- يحرص العالم الغربي على فرض سيطرته على العالم واستحواذه على مقدراته بالأساليب الناعمة، فلم يعد للقوة المادية مسوغ إلا في البيئات المستنزفة أو المستهلكة، والاستحواذ اليوم يكاد ينحصر فيمن يملك المعلومة والصورة (شبكات عنكبوتية، أقمار صناعية، مواقع تواصل، وكالات إعلامية، صناعة أفلام، وهكذا)، ولا أظن أحدا يختلف على الهيمنة الأمريكية اليوم على سوق التأثير المرئي والمعلوماتي، وهذا يمنح قوة في الانتشار وسرعة في الوصول، وقدرة على خلق الأعداء والأصدقاء وتبديل الأدوار بين الملائكة والشياطين حسب متطلبات السياسة ومقتضياتها، وهناك عدد من الدراسات الحديثة التي تثبت ذلك بلا مواربة.

وأخيرا، فما المطلوب بعد هذا العرض لغواية الصورة وتأثيراتها المستقبلية على الفرد والمجتمع؟ أعتقد أن حماية العقل وتحصينه ستكون ذات صعوبة بالغة، ولكن منافسة الموجود ببدائل صالحة ومؤثرة ليس بالأمر المتعسر، خصوصا أن أدوات صناعة الصورة ونشرها لم تعد حكرا على أحد؛ بل هي متاحة ومتيسرة للجميع، بشرط وجود هدف

¹ انظر : جريدة العربي 2015/8/11م.

وغاية وتخطيط إستراتيجي يقاوم سحر الأعين ويجعل الوعي يقظا من خطر اغتياله أثناء ارتخائه في لحظات متعته الآسرة، فإذا كانت التوراة قالت قديما: "في البدء كانت الكلمة"، فإن الإعلام اليوم يقول: "في العمق كانت الصورة".

الخاتمة

وبعد هذا العرض الموجز لظاهرة الجماهير في العالم الواقعي والافتراضي وما يترتب على ذلك من مستقبل، أحاول أن أختتم هذا البحث بالتأكيد على أن البرامج والمواقع التواصلية كانت السبب المؤثر والأبرز في صيرورة غالب أحداث العالم المعاصر؛ لذلك نحتاج من كل مؤسساتنا الإصلاحية أن تساهم بجهود كبيرة في هذا المضمار حتى لا يكون خالصا لغير أهل الصلاح. وطالما أن الجمهور الشاب وجد حاجته النفسية والاجتماعية في مثل هذه المواقع، فمن الضروري لعلاج سلبيات الجماهير الافتراضية دمجهم بالواقع الحقيقي ومعتقدات المجتمع الدينية وقيمه الأخلاقية، والوصل بينهما من أجل تخفيف إدمان تعاطي الشبكة العنكبونية، فلا يكفي الوعظ والإرشاد في منع انحرافات الجمهور الافتراضي؛ بل لا بد من إيجاد مبادرات تحوّل طاقاتهم نحو المفيد من مشاريع التنمية والإصلاح، وإشراكهم في القرار والبناء. وأسأل الله في الختام أن يلهمنا الإخلاص والقبول ويرزقنا التوفيق والسداد.

References:

المراجع:

- Al-Bukhārī, Muḥammad bin Ismā'īl, *al-Jāmi' al-Ṣāḥih*, (Beirut: Dār Ibn Kathīr, 1993).
- Al-Dhahabī, Shams al-Dīn Muḥammad bin Aḥmad, *Tarīkh al-Islām wa Waḥyāt al-Mashāhir wa al-'Alām*, ed. Dr. Bashār 'Awad, Ma'rūf, (Tunisia: Dār al-Gharb al-Islāmī, 2003).
- Al-Futūḥī al-Ḥanbalī, Muḥammad bin Aḥmad, *Sharḥ al-Kawkab al-Munīr li Ibn al-Najjār*, ed. Muḥammad al-Zuhaylī and Nazīh Ḥāmmad, (Riyadh: Maktabah al-'Ubaykān, 2nd Edition, 1997).
- Al-Haythamī, Nur al-Dīn 'Alī bin Abī Bakr, *Majma' al-Zawā'id wa Manba' al-Fawā'id*, (Beirut: Dār al-Fikr, 1992).
- Al-'Azīm Ābādī, Muḥammad Ashraf bin Amir, 'Awn al-Ma'būd Sharḥ Sunan Abī Dawūd, wa ma'ahu Ḥāshiyah Ibn al-Qayyim, *Tadhīb Sunan Abī Dawūd wa Ḍāḥ 'Ilālihi*

- wa *Mushkilatihi*, (Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 2nd Edition, 1994).
- Al-Sijistānī, Abū Dawūd Sulaymān bin al-Ash‘ash, *Sunan Abī Dawūd*, ed. Muḥammad Muḥy al-Dīn, commented by Kamāl al-Ḥūt, (Beirut: Dār al-Fikr, 1995)..
- Al-Zamakhsharī, Mahmūd bin ‘Umar, *al-Mustaṣfā fī Amthāl al-‘Arab*, (Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 2nd Edition, 1987).
- Carl Sagan, *Kawkab al-Ard*, translated by Shuhirat al-‘Ālim, (Kuwait: ‘Ālam al-Ma‘rifah, 2000).
- Gustave Le Bon, *Kitāb Saykulūjiyyat al-Jamāhir*, translated by Hāshim Sāliḥ, (Beirut: Dār al-Sāqī, 6th Edition, 2015).
- Ḥasan al-Muṣaddaq, *Hebermas wa Madrasah Frankfurt*, (Morocco: al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, 2005).
- Ibn Ḥajar, Shihāb al-Dīn Aḥmad bin ‘Alī al-‘Asqalānī, *Fath al-Bārī Sharḥ Ṣaḥīḥ al-Bukhārī*, (Beirut: Dār al-Ma‘rifah, 1959).
- Ibn al-Azraq al-Aṣḥabī, Muḥammad bin ‘Alī, *Badāi‘ al-Suluk fī Ṭabāi‘ al-Muluk*, ed. ‘Alī Sāmī al-Nasshār, (Baghdad: Wizārah al-I‘lām al-‘Iraqiyyah, no date).
- Ibn ‘Āshūr, Muhammad al-Ṭāhir, *Maqāsid al-Sharī‘ah al-Islāmiyyah*, ed. Muḥammad al-Ḥabīb al-Khūjah, (Qatar: Wizārat al-Shu‘ūn al-Islāmiyyah, 2004).
- Ibn Athīr, ‘Alī bin Abī al-Karam al-Jazarī, *al-Nihāyah fī Gharīb al-Hadīth*, (Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1979).
- Ibn Kathīr, Abū Fidā’ Ismā‘īl, *al-Bidāyah wa al-Nihāyah*, (Beirut: Dār al-Fikr, 1986).
- Ibn Khaldūn, ‘Abd al-Raḥmān Muḥammad, *Dīwān al-Mubtada’ wa al-Khabar fī Tarīkh al-‘Arab wa al-Barbar wa man ‘Āsharahum wa min Dhawī al-Sha’n al-Akbar*, ed. Khalīl Shaḥādah, (Beirut: Dār al-Fikr, 2nd Edition, 1988).
- Ibn Manẓūr, Muḥammad bin Mukram bin ‘Alī, *Lisān al-‘Arab*, (Beirut: Dār Ṣādir, 3rd Edition, 1993).
- Ibn Qayyim al-Jawziyyah, *I‘lām al-Muwa‘qqīn ‘an Rabb al-‘Ālamīn*, (Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 1990).
- Ibn Qayyim al-Jawziyyah, *I‘lām al-Muwa‘qqīn ‘an Rabb al-‘Ālamīn*, ed. Ṭaha ‘Abd al-Ra‘ūf Sa‘ad, (Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, Vol. 2, 1990).
- Jarīdat al-‘Arabī, 11 August 2015.
- Michael Hart and Antonio Negri, *Kitāb Jumhūr: al-Ḥarb wa Dīmuqraṭiyyah fī ‘Aṣr al-Imbrāṭūrīyyah*, translated by Ḥaydar Ḥāj Ismā‘īl, Beirut: al-Munazzamah al-‘Arabiyyah li al-Tarjamah, 2015)..
- Ṣaḥīfat al-Riyād, Issue 20 July 2015.
- Ṣaḥīfat al-Sharq al-Awsaṭ al-Dawliyyah, No. Issue 13586, 8 February 2016.
- Sigmund, Freud, *‘Ilm al-Nafs al-Jamāhir*, translated by Anwar al-Jam‘āwī, (Doha: al-Markaz al-‘Arabī li Abḥāth wa Dirāsāt al-Siyāsiyyah, 2015).
- <https://www.alarabiya.net/> Retrieved on 10 December 2015).